فلسفة الوقت
عند الصوفية

تأليف

د. جيب الله حسن أحمد سالم
مدرس العقيدة والفلسفة
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنين - بالقاهرة



المقـــدمـــة

الحمد لله الذى قدر فهدى ، وأحصى كل شىء عددا ، كل شىء عنده بمقدار ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الغفار .

أحمده حق حمده ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أمابعـــد

فإن ألزم شىء للإنسان وقته ، فهو عمره الذى يعيشه ، وقد يدخل فى حساباته أن عمره مابين مولده إلى وفاته ، لكنه لو أنصف لما عد من عمره إلا ماعمره منه بصالح الأعمال ، وماغفل فيه فهو إلى الموت أقرب منه إلى الحياة .

ويهضم الناس الوقت حينما يقولون : الوقت من ذهب ، وأحرى بهم أن يقولوا : الذهب من الوقت ، فإن الوقت يأتى بالذهب ، ولكن الذهب لايأتى بالوقت .

وقد وجدنا القرآن الكريم غاصا بالحديث عن الوقت ، ليس حديثا متكررا فى مواطن عدة ، ولكنه حديث متجدد ، متعدد الجوانب .

فلكل شىء فى السنن الإلهية وقته المحدد الذى لا يتجاوزه ، فبدء الخلق بسمائه وأرضه كان فى وقت محدد ، وبقاء الخلق يستمر إلى وقت محدد ، وانتهاؤه لأجل مسمى ، وللأفراد آجالهم ، وللأمم آجالها ، ولأعمال المكلفين التى شرعها الله لهم مواقيتها : فللصلاة أوقاتها ، وكذا الصوم ، والزكاة ، والحج .

والوقت لا يمر على وتيرة واحدة ، لكنه بين ليل ونهار ، وظلام وإسفار، متجدد أمام البصائر والأبصار ، ليتزود المتزودين من فضله - تعالى - وشكره .

﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ (١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ (٢) .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ (٣)

والوقت منّة من الله - تعالى - تستحق التنويه بها ، بغية التنبه لها ، وذلك عن طريق القسم بالوقت كله ، متمثلا فى العصر الذى هو الدهر ، أو القسم بأجزائه ، وأدواته من الأفلاك التى بها يعرف ، فوجدنا القسم بالعصر ، والفجر ، والصبح ، والضحى ، والليل والنهار ، والشمس ، والقمر، والنجم .

وقد ادخر الله لهذه الأمة أوقاتا خاطفة ، يترقبها المترقبون ، ويقتنصها المقتنصون فإن فيها نفحات الله .

يترقب المسلم فى كل يوم الصلاة الوسطى فى وقتها المحدد ،

ويترقب كل أسبوع ساعة الإجابة فى يوم الجمعة ،

ويترقب كل عام ليلة القدر التى لايعدلها أطول وقت فى حسابات البشر، فهى ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (٤) .

إلى غير ذلك من أوقات الفضل المعلومة على مدار العام .

ويجمع ذلك كله أن حديث القرآن الكريم عن الوقت حديث يوقظ الوعى والشعور حتى يمكن الانتفاع بالوقت ، مستخدما كل الوسائل التى تحقق

---

(١) سورة النور الآية : (٤٤) .
(٢) سورة الفرقان الآية : (٦٢) .
(٣) سورة الإسراء الآية : (١٢) .
(٤) سورة القدر الآية : (٣) .

ذلك . فليس حديث القرآن الكريم عن الوقت حديثا فلسفيا عقليا مجردا ، وإنما هو حديث عملى ، هادف ، أخاذ .

أما السنة النبوية فأحاديث النبى - ﷺ - جاءت تنبه إلى اغتنام الوقت ، وإلى لفت الأنظار إليه باعتباره نعمة كما قال - ﷺ - : " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ " (١) .

وقد نبه - ﷺ - إلى أن الوقت من بين ما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة ، كغيره مما وهب للإنسان ، فقال - ﷺ - " لن تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه (٢) .

ونبه - ﷺ - إلى اغتنام الوقت قبل الفوات ، فقال : " اغتنم خمسا قبل خمس " ، وعدّ منها " فراغك قبل شغلك ، حياتك قبل موتك " (٣) .

فلا عجب أن يكون الرعيل الأول من الأمة ، وهم سلفها الصالح كلهم استجابة لهذين النبعين الصافيين فى الاستفادة بكل ذرة من أوقاتهم ، فمثلهم الأعلى فى ذلك الإنسان الكامل : محمد - ﷺ - الذى لبى توجيه ربه إذ قال له : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤) .

وتعاقب المخلصون من أبناء الأمة جيلا بعد جيل ، يعمرون أوقاتهم فى طاعة ربهم ، ويضربون بسهم وافر فى كل ميدان من ميادين الخير ، فأثمروا حضارة لاتزال الإنسانية تقتطف من جناها حتى اليوم .

---

(١) رواه البخارى بسنده عن ابن عباس .

(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير بسنده عن أبى الدرداء . انظر جامع الأحاديث للسيوطى . ط : دار الفكر ، ج٥ ، ص ١١٥ .

(٣) رواه الحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، انظر الأحاديث للسيوطى ، ج٢ ، ص٦

(٤) سورة الأنعام : الآية رقم ١٦١ ، ١٦٢.

ولم يكتفوا بالتنبه للوقت بل نبهوا غيرهم إليه ، وإلى كيفية الاستفادة منه تعميما للفائدة بدءا من على بن أبى طالب - ﷺ - والحسن البصرى ، ثم أبى الفرج ابن الجوزى - رحمهما الله - ، ووصولا إلى المعاصرين من أمثال الشهيد حسن البنا ، والشيخ محمد الغزالى ، والشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، والدكتور يوسف القرضاوى ، وغيرهم ممن كتب عن الوقت كتابات متفرقة على هيئة مأثورات ، أو مجتمعة على هيئة مقالات أو كتب مصنفة .

إلا أن هذه الكتابات على كثرتها لا تعدو أن تكون منبهة إلى قيمة الوقت ، حاضة على اقتناصه ، والانتفاع به .

لكنى وجدت الصوفية من أكثر الناس اهتماما بالوقت ، وقد يكونون أكثرهم حديثا عنه ، وليست العبرة بكثرة حديثهم عن الوقت ، وإن كان هذا له دلالته ، ولكن العبرة بتناولهم الخاص للوقت .

فالوقت أصبح مصطلحا من مصطلحاتهم ، أخذوا يعرفونه ، ويذكرون حقوقه ، وآدابه ، والغيرة عليه ، بل أصبح الصوفى فى عرفهم (ابن وقته) ، ومنهم من كان (صاحب وقت) ، (وأصحاب الأوقات) عندهم لهم مايميزهم عن غيرهم من الصوفية الآخرين .

وهكذا فقد اهتم الصوفية بالوقت كغيرهم ، وقالوا فيه ماقاله غيرهم ، وزادوا على ذلك ما أضفوه عليه من أذواقهم الخاصة - كعهدنا بهم - ، مما يجعلهم أصحاب فلسفة خاصة فى الحديث عن الوقت .

فما أحرانا أن نقترب من (فلسفة الوقت عند الصوفية) ، علنا نأخذ من تراثنا التليد زادا لحاضرنا ومستقبلنا .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

د. جيب الله حسن أحمد سالم

اهتمام الصوفية بالوقت
وبعض ما أثر عنهم فى ذلك

لم يكن اهتمام الصوفية بالوقت بدعا ، وإنما كان ذلك امتدادا لما كان عليه سلف الأمة ، ومن سار سيرتهم من بعدهم .

لذا وجدناهم يروون أقوال أئمتهم مقترنة بأقوال الصحابة والتابعين ، إشارة إلى أنهم لم يخرجوا عن منهج صحابة رسول الله - ﷺ - ، والتابعين لهم بإحسان .

فهم يروون عن على - رضي الله عنه - قوله :- " بقية عمر العبد مالها ثمن ، يدرك بها مافات ، ويحيى بها ما مات " .

ويروون أيضا عنه قوله لزوجه فاطمة بنت رسول الله ، ﷺ - و رضي الله عنهما :- " إذا صنعت طعاما فميعيه (أى اجعليه مائعا) ، فإن بين المائع واليابس خمسين تسبيحة " .

ويشبه هذا المأثور عن على - رضي الله عنه - ما جاء عن أحد أئمتهم وهو أبو على الجوزجانى قوله :- " ما مضغت الخبز منذ أربعين سنة ، وإنما أسف السويق وأعود لذكر الله - تعالى - ، قال :- وقد كنت عددت مابين المضغ والبلع ستين تسبيحة .

ويروون عن الحسن البصرى - رضي الله عنه - قوله :- " أدركت أقواما كانوا على أنفاسهم وأوقاتهم أشد حفظا ، وأحرص شفقة منكم على دنانيركم ودراهمكم ، كما لا يخرج أحدكم درهمه ولا ديناره إلا فى ورود منفعة ، واستجلاب فائدة كذلك كانوا لايضيعون نفسا من أنفاسهم فى غير طاعة أبدا (١) .

---

(١) انظر هذه الأقوال فى: إيقاظ الهمم شرح الحكم . لابن عجيبة. ط . دار المعارف . القاهرة . صـ : ٤٤٦ .

وما أكثر ما أثر عن الصوفية فى الوقت حتى إنهم قالوا :- " الصوفى ابن وقته " .

وهاك بعض مأثوراتهم فى الوقت :

يقول الحارث بن أسد المحاسبى :- " أكثر شغل الحكيم فيما يوجبه عليه الوقت ، والذى هو أولى به فيه " .

ويقول أبو حفص النيسابورى :- " الفقير الصادق الذى يكون فى كل وقت بحكمه ، فإذا ورد عليه وارد يشغله عن حكم يستوحش منه وينفيه " .

ويقول أبو القاسم الجنيد :- " الوقت إذا فات لا يستدرك ، وليس شىء أعز من الوقت " .

ويقول أبو بكر محمد بن حامد الترمذى :- " رأس مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب ما لا يعنيك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله " ؟ (١) .

ويقول أبو سعيد الخراز :- " لاتشغل وقتك العزيز إلا بأعز ما هو موجود " (٢) .

ومع ماكان منهم من حرص على الوقت فهم يشعرون بالتقصير لعدم استثماره كما ينبغى ، بل كانوا يتأسفون لذلك كل الأسف .

قال رجل للجنيد - رحمه الله - :- على ماذا يتأسف المحب من أوقاته ؟ ، قال :- على زمان بسط أورث قبضا ، أو زمان أنس أورث وحشة ، ثم أنشأ يقول :-

قد كان لى مشرب يصفو برؤيتكم   فكدرته يد الأيام حين صفا (٣)

---

(١) انظر هذه المأثورات فى : طبقات الصوفية . لأبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق نور الدين شريبة ط. دار الكتاب العربى . القاهرة .. صـ ك ٥٦ ، ١١٧ ، ١٦١ ، ٢٨٣ .

(٢) كشف المحجوب للهجويرى ، ترجمة : محمود أبو العزايم ، دار التراث العربى ، صـ : ٤٤٥ .

(٣) طبقات الصوفية ، صـ : ١٦٣ .

وكان أبو على الدقائق ينشد قائلا :-

كل يوم يمر يأخـذ بعضـى يورث القلب حسرة ثم يمضي [1]

وراحوا يشبهون الوقت بالسيف ، فإن قطعته ، وإلا قطعك ، وبالمبرد ، يسحقك ، ولا يمحقك ، تعبيرا عن سطوة الوقت ، وغلبته ، وتآكل صاحبه بانصرام الوقت التدريجى [2] .

فهذا غيض من فيض مما أثر عن الصوفية فى الوقت ، والانتفاع به .

بيد أنا لانقف عند هذا الحد فى بحثنا هذا ، فهذا أمر يشتركون فيه مع غيرهم من حملة ثقافتنا الإسلامية بجوانبها المختلفة ، ولو كان هذا قصدنا لاكتفينا بما قدمناه فى هذه السطور السابقة .

إذن فلنمض مع الصوفية فى حديثهم المتميز عن الوقت ، بادئين بالمعنى اللغوى .

---

(١) الرسالة القشيرية ، لعبد الكريم القشيرى ، ط . صبيح ، القاهرة ، صـ : ٥٢ .

(٢) انظر كشف المحجوب ، صـ : ٤٤٦ ، والرسالة القشيرية ، صـ : ٥٣ ، وشرح الحكم لابن عباد النفرى ط . مصطفى الحلبى . صـ : ٢١ .

الوقت في اللغة

جاء في (لسان العرب) :- " الوقت مقدار من الزمان ، وكل شيء قدرت له حينا فهو مؤقت ، وكذلك ماقدرت غايته فهو مؤقت ، ونقل عن ابن سيده قوله :- الوقت مقدار من الدهر معروف ، وأكثر مايستعمل في الماضي، واستعمل سيبويه لفظ الوقت في المكان ، تشبيها بالوقت في الزمان ؛ لأنه مقدار مثله ، فقال :- ويتعدى إلى ما كان وقتا في المكان ، كميل، وفرسخ، وبريد ، والجمع أوقات ، وهو الميقات ، ووقت موقوت، وموقت : محدود ، وفي التنزيل العزيز :- ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾ [١] أي مؤقتا مقدراً ، أي كتبت عليهم في أوقات " [٢] .

وقال الراغب :- " الوقت نهاية الزمان المفروض للعمل ، وهذا لا يكاد يقال إلا مقدرا ، نحو قولهم : وقّت كذا ، أي جعلت له وقتا ، قال تعالى :- " إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا " [٣] ، وقال :- " وإذا الرسل أقتت [٤] ، والميقات : الوقت المضروب للشيء ، والوعد الذي جعل له وقت ، قال - عز وجل :- " إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين " [٥] ، وقال :- " إن يوم الفصل كان ميقاتا " [٦] ، وقال :- " إلى ميقات يوم معلوم [٧] ، وقد يقال الميقات للمكان الذي يجعل وقتا للشيء ، كمقيات الحج " [٨] .

---

(١) سورة النساء . الآية : ١٠٣ .

(٢) انظر لسان العرب . لابن منظور . ط . دار المعارف . مادة : وقت . جـ ٦ . صـ ٤٨٨٧ ، ولا تخرج معاجم اللغة التي اطلعت عليها في تحديد معاني الوقت واستعمالاته عما جاء في لسان العرب ، راجع مادة : وقت في : القاموس المحيط للفيروزآبادي ، والصحاح للجوهري ، وأساس البلاغة للزمخشري والمصباح المنير للفيومي ، ومختار الصحاح لابن أبي بكر الرازي ، والمعجم الوسيط . إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٣) سورة النساء . الآية : ١٠٣ . (٤) سورة المرسلات . الآية : ١١ .

(٥) سورة الدخان . الآية : ٤٠ . (٦) سورة النبأ . الآية : ١٧ . (٧) سورة الواقعة . الآية : ٥٠ .

(٨) المفردات في غريب القرآن . للراغب الأصفهاني . مكتبة الأنجلو المصرية . مادة : وقت . صـ ٨٣٠، ٨٣١ ، ويقارن بمعجم ألفاظ القرآن اصدار : مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ط . طهران . مادة : وقت جـ ٢ . صـ ٨٣٢ .

يستنتج من هذين النصين ما يلى :-

١- أن الوقت يطلق فى الاستعمال اللغوى على زمان محدد .

٢- أن هذا الاستعمال انتقل من الزمان المحدد إلى المكان المحدد [١]

٣- أن التقدير والتحديد ملازم للوقت ، سواء أكان تقديرا زمانيا - حينا ، أم غاية - أم تقديرا مكانيا .

٤- أن إطلاق الوقت فى اللغة ليس مختصا بالزمان الماضى ، أو الحاضر ، أو المستقبل ، بل إنه يطلق على جميعها ، وإن كثر استعماله فى الماضى ، كما جاء فى (لسان العرب) .

الوقت فى اصطلاح الصوفية

يوثر عن الإمام الشافعى - رحمه الله - ت : (٢٠٤) هـ أنه قال :- " صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين : سمعتهم يقولون : " الوقت سيف ، فإن قطعته وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل " [٢] .

هذه المقولة المنقولة عن الإمام الشافعى تشير إلى أن كلمة الوقت تداولها الصوفية فيما بينهم فى وقت مبكر ، وأنها أصبحت من مصطلحاتهم الخاصة ، وذلك مايفيده كلام الشافعى ، فهو قد صحبهم ، والصحبة تعنى الملازمة مع الصحب ، والانتفاع بما يرددونه فى صحبته لهم .

---

(١) وقد توسع الفقهاء ، فاطلقوا على كل شىء محدد مقدر أنه موقوت وموقت ، استنادا إلى ماجاء عن على ﷺ " أن رسول الله - ﷺ - لم يوقت فيها شيئاً " ، أى لم يقدر فى شرب الخمر مقدارا معينا من الجلد ، انظر : المغرب فى ترتيب المعرب للمطرزى . ط . بيروت . ص ٤٩٠ .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم . تحقيق : محمد حامد الفقى . دار الكتاب العربى . بيروت . ج ٣ ص ١٢٩ والتمكين فى شرح منازل السائرين لأبى الفيض المنوفى . مكتبة نهضة مصر . صـ ٢٥٧ .

وإذا وضعنا فى الاعتبار تحديد ماسينيون وقت ظهور كلمة (التصوف) بأنها عام ١١٩ هـ [١] تكون الكلمتان : الوقت والتصوف قد ظهرتا فى وقت واحد تقريبا .

وليس بغريب ولا مستبعد أن يقترن اللفظان فى الظهور ، فالتصوف كما هو معلوم بدأ بداية عملية ، قوامها الزهد ، والعبادة ، والمشتغل بهما أول من يدرك قيمة الوقت ؛ لهذا نجدهم يقولون : - " الصوفى ابن وقته " [٢] ، ويعبر عنهم أبو سعيد الخراز الملقب بلسان التصوف قائلاً : - " لا تشغل وقتك العزيز إلا بأعز ما هو موجود " [٣] .

بعد هذه المقدمة التاريخية عن ظهور مصطلح الوقت لدى الصوفية ترى ما معنى الوقت عندهم ؟ .

لقد كثرت تعريفات الصوفية للوقت :-

١- فأبو على الدقاق يعرفه بقوله : " الوقت ما أنت فيه ، إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن " [٤] .

ويحدد القشيرى المراد من كلام شيخه ، فيقول : - " يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان " [٥] .

٢- ويذكر القشيرى تعريفاً آخر للوقت وهو : " ما بين الزمانين : الماضى والمستقبل " [٦] .

---

(١) الاسلام والتصوف للشيخ مصطفى عبد الرازق ، وما سينيون . ط . دار الشعب . صـ ١٥ .
(٢) الرسالة القشيرية . صـ ٥٣ ، ومدارج السالكين . جـ ٣ . صـ ١٢٨ .
(٣) كشف المحجوب . صـ ٤٤٥ .
(٤) الرسالة القشيرية . صـ : ٥٢ ، ومدارج السالكين . جـ ٣ . صـ : ١٢٨ .
(٥) الرسالة القشيرية . صـ : ٥٢ .
(٦) المرجع السابق . صـ : ٥٣ .

ويذكر ابن القيم إن هذا التعريف هو اصطلاح أكثر الطائفة، قال: "وقد يريد أبو على الدقاق بتعريفه السابق هذا المعنى " (١) .

٣- ويعرفه الهجويرى بأنه : " الفراغ مما مضى وما هو آت " (٢).

٤- ويعرفه السهروردى صاحب (عوارف المعارف) بقوله : " ما هو الغالب على العبد " (٣) وهو قريب من تعريف أبى على الدقاق .

٥- ويذكر السهروردى تعريفاً آخر للوقت ، وهو : " ما يهجم على العبد لا بكسبه ، فيتصرف فيه ، فيكون بحكمه ، يقال : فلان بحكم الوقت ، يعنى : مؤخوذا عما منه بما للحق " (٤) .

٦- ويذكر له ابن عربى عدة تعريفات ، وهى قوله : " الأمر الوجودى بين عدمين "(٥) .

٧- وقوله : " الوقت عبارة عن حالك في زمان الحال ، لا تعلق له بالماضى ولا بالمستقبل (٦) .

٨- وقوله : " ما أنت عليه وبه فى زمان الحال " (٧) .

ومؤدى التعريفات الثلاثة واحد .

٩- ويعرفه الشريف الجرجانى بقوله : " الوقت عبارة عن حالك ، وما يقتضيه استعدادك غير المجعول " (٨) .

١٠- ويقول ابن القيم : " والوقت عند القوم أخص منه فى لغة العرب ، حتى إن منهم من يقول : الوقت هو الحق ، ومنهم من يقول : استغراق رسم العبد فى وجود الحق ، يشيرون إلى الفناء فى

---

(١) مدارج السالكين . جـ ٣ . صـ : ١٢٨ .   (٢) كشف المحجوب . صـ : ٤٤٥ .

(٣) عوارف المعارف . هامس الإحياء للغزالى . ط . دار إحياء الكتب العربية . جـ ٤ صـ : ٤٦٨ ، ٤٦٩ .   (٤) المرجع السابق والصفحة .

(٥) الفتوحات المكية لابن عربي . دار صادر بيروت . جـ ٢ . صـ ٥٣٨ .

(٦) المرجع السابق والصفحة .   (٧) المرجع السابق والصفحة .

(٨) التعريفات للجرجانى . ط . مصطفى الحلبي . القاهرة . صـ : ٢٣٧ .

حضرة الجمع . والغالب على اصطلاحهم أنه من الإقبال على الله بالمراقبة، والحضور، والفناء فى الوحدانية ، ويقولون : هو صاحب وقت مع الله ، فخص الوقت بهذا الاسم تخصيصا للفظ العام ببعض أفراده ، وإلا فكل ما هو مشغول بأمر يعنى به ، فإن فى شهوده ، وطلبه فله وقت معه ، بل أوقاته مستغرقة فيه " (١) .

١١- ومع ما ذكره ابن القيم من أن استعمال الصوفية للوقت أخص من الاستعمال اللغوى إلا أنه يذكر لهم تعريفاً أخص من تعريفاتهم السابقة ، فيقول : " وقد يريدون بالوقت ما هو أخص من هذا كله ، وهو : ما يصادفهم من تصريف الحق لهم ، دون ما يختارونه لأنفسهم ، ويقولون : فلان بحكم الوقت ، أى مستسلم لما يأتى من عند الله من غير اختيار " (٢) .

١٢- أما عبد الرزاق القاشانى فيعرفه بقوله : " ما حضرك فى الحال ، فإن كان من تصريف الحق فعليك الرضا والاستسلام ، وإن كان مما يتعلق بكسبك فالزم ما أهمك فيه " (٣) .

١٣- وربما تبلورت أكثر هذه المعانى فى تعريف الشيخ زكريا الأنصارى ، إذ يقول : " هم يطلقون الوقت على : ما غلب من الحال ، وعلى ما كان من عمارة للزمان ، وعلى ما يصرف الله العبد فيه من المقدورات بغير اختيار " (٤) .

والملاحظ على هذه التعريفات إن الصوفية عمدوا إلى المعنى اللغوى الظرفى للوقت فاقتصروا به على الحاضر منه فقط ، دون الماضى ،

---

(١) مدارج السالكين . جـ ١ . صـ : ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق . جـ ٣ . صـ : ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٣) اصطلاحات الصوفية . تحقيق : د. محمد كمال جعفر . ط . الهيئة العامة للكتاب . القاهرة . صـ : ٥٣ .

(٤) انظر تعليق الشيخ زكريا الأنصارى على الرسالة القشيرية . صـ : ٥٣ .

والمستقبل . ومن هنا كان معنى الوقت عندهم أخص من معناه اللغوى كما ذكر ابن القيم .

ومن هذا المنطلق جاءت التعريفات التى تحدد الوقت بأنه : " ما بين الزمانين " ، أو الموجود بين عدمين " ، أو " الفراغ مما مضى وما هو آت " .

لكنهم لم يقفوا عند هذا التحديد وهذا التخصيص ، لأن الزمان لم يكن مقصوداً لذاته عندهم ، وإنما المقصود ما يستغرقه الزمان .

ولذلك انتقلوا بتعريف الوقت من التحديد الزمنى إلى مايقع فيه من وقائع .

ولأن ما يقع فى الوقت أمور كثيرة .

- منها ما يكون بإرادة العبد من مراقبته ربه ، وإفراغه همته فى عمارته وقته بأمور معاشه ، أو معاده .
- ومنها ما يكون أمرا وجدانيا من فرح أو سرور .
- ومنها ما يكون أمرا قدريا يحل بالعبد ، ولا يد له فيه .
- ومنها مايكون حالا صوفيا ، قسريا ، يغلب على صاحبه ، فيحمله على عمارة وقته .

وقد يستغرق الوقت حال الفناء لذى ينتاب بعض الصوفية .

فلهذا اختلفت تعريفاتهم ، ما بين جامع لكل هذه الأمور على طريق الإجمال فى تعريف واحد ، مثل تعريف أبى على الدقاق ، أو جامع لبعضها ، مثل تعريف القاشانى ، وأبى زكريا الأنصارى ، أو مقتصر فى تعريفه على واحد من هذه الأمور ، مثل تعريف السهروردى ، وما ذكره ابن القيم من تعريفات .

وإذا أردنا أن نجمع هذه التعريفات المختلفة فى تعريف واحد فإنا نقول : " الوقت هو الزمان الحاضر ، وما يستغرقه مما يقع من العبد بإرادته، أو يقع له بغير إرادته .

أدب الوقت

يقول أبو حفص النيسابوري : " التصوف كله آداب ، لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، ولكل حال أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول " (١) .

فلا بد أن يكون أدب الوقت هو ما يلتزمه الصوفي فيه ، حتى يحقق المستهدف منه ، والمستهدف من الوقت عندهم عمارته ، وعدم تضييعه ، فتضييعه ضياع للحياة كلها .

يقول ابن القيم : " وهم يريدون بذلك أن همة الصوفى لا تتعدى وظيفة عمارته بماهو أولى الأشياء به ، وأنفعها له ، فهو قائم بما هو مطالب به فى الحين والساعة الراهنة " (٢) .

وإذا كانت همة الصوفى لا تتعدى عمارة وقته ، حسب الأولويات ، فإن توزع هذه الهمة بين الماضى والمستقبل يؤثر سلبا على توجهها إلى عمارة الوقت .

وكما يقول ابن القيم : " وكلما حضر وقت انشغل عنه بالطرفين ، فتصير أوقاته كلها فواتا " (٣) .

من هنا وجدنا أن أدب الوقت عند الصوفية يقتضى عدم الالتفاف عنه إلى غيره ، لدرجة أنهم جعلوا ذلك من صميم تعريف الوقت كما رأينا فى تعريفاتهم له .

والالتزام بهذا الأدب علامة الصدق عندهم .

يقول يوسف بن الحسين الرازى ، وقد سئل عن الفقير الصادق : " من آثر وقته ، فإن كان فيه تطلع إلى وقت ثان لم يستحق اسم الفقر " (٤) .

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى . صـ : ١١٩ ، وكشف المحجوب . صـ : ٥١ .
(٢) مدارج السالكين . جـ ٣ . صـ ١٢٣ .
(٣) المرجع السابق والصفحة .
(٤) طبقات الصوفية للسلمى . صـ : ١٨٨ .

وهو علامة على العلم بالله ، كما أن عدم الالتزام به علامة على الجهل به تعالى .

يقول ابن عطاء الله السكندرى فى (الحكم) : " ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه .

ويشرح الشيخ عبد الله الشرقاوى هذه الحكمة قائلا : " فإذا كان المريد فى حال بدنى ، أو قلبى ، لا يذمه الشرع لزمه حسن الأدب فى اختيار بقائه عليه ، ورضاه به ، حتى ينقله الله عنه ، فإذا كان متجردا ، وتعلق قلبه بالتكسب ، أو كان فى صفة وأراد الانتقال منها إلى غيرها كان قليل الأدب مع مولاه ، جاهلا بما يناسب حضرته ، وكذا إن كان فى حال قبض ، وأراد الانتقال منه إلى البسط .

قال بعضهم لى : منذ أربعين سنة ما أقامنى الله فى حال فكرهته ، ولا نقلنى إلى غيره فسخطته .

وهذا من نتائج العلم بالله ، ومعرفة ربوبيته .

فإن سخط تلك الحال ، وتشوف إلى الانتقال عنها بنفسها ، وأراد أن يحدث غير ما أظهر الله – تعالى – فقد بلغ غاية الجهل بربه ، وإساءة الأدب فى حضرته ، وهذا من معارضة حكم الوقت الذى تشير إليه الصوفية ، وهو عندهم من أعظم ذنوب الخاصة " (١) .

ولما كان الصوفية يركزون على العوامل النفسية ، والأمور الباطنة باعتبارها المحرك للأعمال الظاهرة وجدناهم يتغلغلون فى أغوار النفس البشرية ، يشخصون عللها ، ويقدمون علاجها .

فهم ما جعلوا من أدب الوقت عدم التوزع بين الماضى والمستقبل إلا لأن هذا التوزع يجعل النفس فى حالة من الاضطراب والقلق ، وإذا كانت

---

(١) الحكم لابن عطاء الله السكندرى مع شرحها للشيخ عبد الله الشرقاوى . جـ ١ . صـ : ٢٠ .

النفس قلقة مضطربة لم يستطع صاحبها إنجاز أى عمل مهما كانت أدوات إنجازه متوفرة .

تنبه الصوفية إلى هذا ، كما تنبهوا ، ونبهوا إلى العلاج من هذا القلق النفسى فى السكون إلى الوقت .

ولم يكتفوا بذلك ، بل قدموا وسائل الإقناع التى تبعث على سكون النفس بالوقت .

وهاك بعض نصوصهم فى هذا الصدد ، نقدمها ، ثم نستخرج العوامل التى تقنع المرء بالركون إلى الوقت ، وعدم التطلع إلى غيره :-

- يقول أبو بكر الواسطى : " الوقت أقل من ساعة ، فما أصابك من نعمة ، أو شدة قبل ذلك الوقت فأنت عنه خال ، إنما ينالك منه ما فى ذلك الوقت ، وما كان بعد ذلك فلا تدرى أيصل إليك أم لا " (١) .
- ويقول الهجويرى : " إذا ورد على النفس وارد حقيقى ، وصار به القلب مجتمعا فإنه لا يشتغل بذكر ما مضى ، ولا الفكر فيما هو آت ، وكل الناس واقعون فى هذا ، ولا يعرفون ماهية الماضى ، ولا ما سيحدث فى المستقبل .

وأرباب الأوقات الذين يقولون : لا شأن لعلمنا بإدراك ما فات ، وما هو آت ، نحن سعداء مع الله فى الوقت الذى نكون فيه ؛ لأننا إذا شغلنا بالغد ، أو أذهبنا القلب حسرات على الأمس حجبنا عن الوقت ، والحجاب اضطراب .

إذن فكل ما لا تبلغه اليد من العبث التفكير فيه " (٢) .

- ويقول أبو بكر محمد بن حامد الترمذى : " إذا سلم وقت من أوقاتك من الغفلة فغر على ذلك الوقت أن تتبعه بما يخالفه ؛ فإن مخالفة الأوقات على المرور من اعوجاج الباطن " (٣) .

---

(١) كشف المحجوب . صـ : ٤٤٥ .　　(٢) المرجع السابق والصفحة .
(٣) طبقات الصوفية للسلمى . صـ : ٢٨٣ .

- ويقـول ابن عطاء الله السكندرى فى (الحكم) " لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج " .

- ويشرح الشيخ عبد الله الشرقاوى هذه الحكمة قائلا : " أى مع بقائك على حالك التى أنت عليها .

- فإذا كان المريد على حالة لا توافق غرضه ، وكانت مباحة فى الشرع لا ينبغى له أن يروم الخروج منها بنفسه ، ويعارض حكم الوقت ......

وكذا لا ينبغى له أن يعارض حكم الوقت ، ويطلب من مولاه أن يخرجه منه ، ويستعمله فيما سواه ؛ لأن هذا من التخيير على الله ، ولا خيرة له فى ذلك .

بل ينبغى أن يطلب حسن الأدب معه ، وإيثار مراده على اختياره (أى إيثار مراد الله على اختيار الشخص) ، فإذا علم منه مولاه ذلك استعمله استعمالا محبوبا عنده ، مع بقائه على ما هو عليه ، فيكون إذ ذاك بمراد الله له ، لا بمراده لنفسه ، وهو خير له مما اختاره " (١) .

وينتقل صاحب (الحكم) بنا إلى حكمة أخرى فى " أدب الوقت " ، وهى قوله : - " ما من نفس تبديه إلا وله فيك قدر يمضيه " .

فكل نفس يبدو منك ظرف لقدر من أقدار الحق ينفذ فيك كائنا ما كان ، فينبغى لك الأدب معه ، ومراقبته فى كل نفس من أنفاسك ، فتكون في كل نفس سالكا طريقا إلى الحق سبحانه وتعالى .

وهو معنى قولهم : الطرق إلى الله - تعالى - بعدد أنفاس الخلائق " (٢) .

---

(١) شرح الشرقاوى على الحكم . جـ ١ . صـ ٢١ ، ٢٢ .

(٢) المرجع السابق . جـ ١ . صـ ٢٣ ، ٢٤ .

ويمضى صاحب (الحكم) قائلا : " لا تترقب فروغ الأغيار ؛ فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة له فيما هو مقيمك فيه " .

ويقول ابن عباد شارح الحكم : - " إذا أقام الله - تعالى - عبدا فى سبب من الأسباب فالواجب عليه أن يوفيه حقه ، ويلزم فيه الأدب ، ولا يترقب وقتا ثانيا يكون فيه فارغا منه ؛

فإن تأميله للوقت الثانى يمنعه من القيام بحق الوقت الأول فيما أقيم فيه، وتوفيته مايجب له ، وهو خلاف الأمر المطلوب منه، فليجتنب ذلك المريد .

قال أبو حفص - ﷺ - : الفقير هو الذى يكون فى كل وقت بحكمه ، فإذا ورد عليه وارد يشغله عن حكم وقته يستوحش منه ويتقيه .

وسئل سهل متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير وقتا غير الوقت الذى هو فيه "(١).

من هذه النصوص نجد الصوفية يقدمون الأسباب والحجج على عدم جدوى الانشغال بالماضى والمستقبل ، وانصراف الهمة إلى الانشغال بالوقت .

وهذه الأسباب والحجج على تنوعها وتعددها تلتقى عند أمر جامع هو : إثبات أن الماضى بما حمل ، والمستقبل بما يجيئ به ليسا تحت طائلة الإنسان ، بينما الوقت الذى يعيشه هو الذى تمتد إليه يده . فكيف ينشغل بما لا سيطرة له عليه عما يعيشه وهو تحت يده ؟ ! إن ذلك عبث لا يليق بالعقلاء .

وقد وجدنا الصوفية فى بعض تعريفاتهم للوقت يخصونه بأنه الموجود بين عدمين ، تنويها بأن التأدب بأدبه يقتضى أن يشتغل المريد به ، ولا ينشغل عنه بما هو معدوم ، فالماضى والمستقبل كلاهما فى طى العدم ، ومامكان فى طى العدم لا تمتد إليه يد العبد .

(١) شرح ابن عباد على الحكم . جـ ١ . صـ ٢٤ .

بيد أن هذه البرهنة العقلية قد تجد مكانها عند المريد وهو في بداية الطريق ، حيث إن الأمر يحتاج إلى مجاهدة ، والنفس تعيش فى صراع .

أما وقد تخطى الصوفى هذه المرحلة فإنه لم يعد بحاجة إلى مثل هذه البرهنة ؛ فإن رسوخ قدمه فى طريقه إلى ربه يجعله سعيدا فى وقته ، وسعادته فى وقته لسعادته بربه ، وأنسه به ، وأنسه بربه فى وقته يجعله يستوحش من كل ما يشغله عن ذلك ، فهنا يستريح الصوفى ، ويطيب نفسا، ويغار على هذه الحالة إن تتبدد أو تتغير .

أما صاحب (الحكم) فإنه ينقلنا نقلة أخرى .

فالتأدب بأدب الوقت بعدم التطلع إلى غيره لا يعود فقط إلى أن غير الوقت خارج عن إمكانات العبد ، بل إن الوقت نفسه ليس داخلا تحت إمكانه .

فوقت العبد حالا كان أو معاشا إنما هو قدر الله - تعالى - ، أجراه عليه ، فمن الأدب السكون لقضائه وقدره ، والرضا به .

وهذا يقتضى ألا تتشوف النفس إلى الانتقال عما أجراه الله عليها ، فذلك ينافى الرضا بقضائه ، والتسليم لحكمه .

وكما أن أدب الوقت يقتضى ألا يطلب المريد أن ينتقل بذاته إلى غير وقته فإنه من أدب الوقت أيضا ألا يطلب من ربه أن ينقله إلى غيره ؛ فإن ذلك تخيير على الله فيما اختار .

فما عليه إلا أن يترك الأمر لاختياره - تعالى - ، وتصريفه ، ولا يقحم مراده مع مراد ربه ، ولا اختياره مع اختيار ربه .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

---

(١) سورة القصص الآية : ٦٨ .

لكن قد تحدث النفس صاحبها وهى تشرئب إلى الانتقال عماهى فيه ، بأن ما تتطلع إليه خير مما هى فيه ؟ ولم لا ؟ ، ألم يستعملها الله استعمالا أفضل مما كانت عليه ؟

لذا نجد صاحب (الحكم) يسد على النفس هذا الهاجس بأن الأمر فى النهاية مرده إلى إرادة الله .

فإذا أراد الله عبده استعمله خير استعمال فيما هو فيه من غير حاجة إلى أن ينقله إلى غيره ، وذلك جزاء من يؤثر مراد الله على مراده .

وهذا المعنى القدرى للوقت الذى أفاض فيه ابن عطاء الله قد ألمح إليه الهروى حينما استشهد على منزلة الوقت التى هى من منازل السائرين إلى الله بقوله – تعالى – : ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ (١) .

واستحسن ابن القيم منه هذا الاستشهاد فقال : – " واستشهاده بهذه الآية يدل على محله من العلم ؛ لأن الشئ إذا وقع فيوقته الذى هو أليق الأوقات بوقوعه فيه كان أحسن ، وأنفع ، وأجدى ، كما إذا وقع الغيث فى أحوج الأوقات إليه ، وكما إذا وقع الفرج فى وقته الذى يليق به .

ومن تأمل أقدار الرب – تعالى – ، وجريانها فى الخلق علم أنها واقعة في أليق الأوقات بها .

فبعث الله – سبحانه – موسى أحوج ما كان الناس إلى بعثته ، وبعث عيسى كذلك ، وبعث محمد – صلى الله عليه وعليهم أجمعين – أحوج ما كان أهل الأرض إلى الرسالة .

فهكذا وقت العبد مع الله يعمره بأنفع الأشياء أحوج ما كان إلى عمارته " (٢) .

---

(١) سورة طه الآية : ٤٠ .

(٢) مدارج السالكين . جـ ٣ . صـ ١٢٧ ، ١٢٨ .

تعقيب

هل يفهم مماسبق من فهم الصوفية للوقت ، وقولهم : الصوفى ابن وقته أنهم قوم يعيشون لحظتهم الحاضرة ، وأنهم يكتفون بالنظر تحت أقدامهم ، خاصة أنهم يجعلون من أدب الوقت عدم تبديده بين الماضى والمستقبل ، فذلك يورث الاضطراب ، ويصرفهم عن أن يعيشوا وقتهم ؟

وكيف لا يلتفت المسلم إلى الماضى وقد أمر أن يتدبر وينظر فيما حدث للأمم السابقة ، حتى يأخذ العبرة ؟ ، وقد قال الله - تعالى - فى عدة مواضع : - ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (١) .

وهل يكون الماضى على هذا الوجه حجابا عن الوقت أو معينا عليه ؟

وهل يأبى الإسلام الإعداد للمستقبل وحياة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وجهاده كله إعداد لمستقبل الإسلام ؟

والقرآن الكريم ذكر الإعداد للمستقبل فى شؤون الدنيا على لسان يوسف - عليه السلام - وهو يؤول رؤيا الملك ، حيث يقول - تعالى - :﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ (٢) .

أيقضى المسلم حياته فى لحظته الحاضرة ، غير ملتفت نحو غده لأن الصوفية قالوا له فى أدب الوقت : - المستقبل غيب ، فمن العبث التفكير فيه ؟

إذن يرتع مع الراتع القائل :

ما مضى فات والمؤمل غيب   ولك الساعة التى أنت فيها

(١) سورة يوسف . الآية : ١٠٩ ، سورة غافر . الآية : ٨٢ ، سورة محمد . الآية : ١٠ .

(٢) سورة يوسف الآية : ٤٧ ، ٤٨ .

ثم ما هذا التعلق بالقدر ؟

هل هذا يعنى أن المسلم يرضى بالواقع كيفما اتفق ، دون تطلع إلى ماهو أفضل بحجة أنه من أقدار الله التي يجريها على عباده ، فلا فكاك له عنها ؟

أيجمل هذا بالمسلمين والعالم كله فى سباق مع الزمن نحو التقدم والرقي ؟

ولماذا امتنع عمر - رضى الله عنه - عن السفر إلى الشام حين سمع أن بها مرض الطاعون ؟

أما كان مستسلما للقدر حين ذاك ؟

لكنه حينما سئل : أتفر من قدر الله ؟ ، قال : - " أفر من قدر الله إلى قدر الله " (١) .

قد يقال هذا وأكثر منه ، خاصة أن الصوفية يكثر بينهم الأدعياء ، مما يسهل على خصومهم مهمة نقدهم ، أخذا من أطراف كلامهم ، وشطحات بعضهم ، وواقع المندسين بينهم .

لكن النظرة المحايدة إلى كلامهم قبل تكوين حكم مسبق عنهم تنفى كل هذه التساؤلات ، فالقوم ما جعلوا من أدب الوقت عدم التأرجح بين الماضى والمستقبل إلا من خلفية أن ذلك يعطل الإنسان عن إتقان عمل الوقت .

فالحسرة على الماضى - لا العبرة بالماضى - هى التى تؤثر على عمارة الوقت .

أما أذا كان الاعتبار بالماضى معينا على عمارة الحاضر فكيف ينصرفون عنه وهو يعينهم على تحقيق هدفهم ؟!

---

(١) رواه البخارى بسنده فى صحيحه عن ابن عباس من حديث خروج عمر - رضى الله عنه - إلى الشام ، كتاب : الطب ، باب : ماذكر فى الطاعون ، رقم الحديث : ٥٧٢٩ .

ثم هم يعدون من أدب الوقت عدم التفات الصوفى إلى الماضى ، أى ماضيه هو ، مما يورثه الحسرة والندم الذى يعطل مسيرته فى حاضره ، لا ماضى الغابرين ممن يعتبر بهم .

والإعداد للمستقبل ليس منافيا لأدب الوقت ، فقد يكون عملا من أعمال الوقت ، فعمارة الوقت به يعنى إتقانه بالتخطيط السليم الذى يؤتى ثماره فى المستقبل .

إنهم ما أرادوا عدم الانشغال بالمستقبل إلا بالقدر الذى يؤثر على عمل الوقت الحاضر .

إنها معالجة نفسية بحتة حتى لا تعيش النفس قلقة مضطربة .

وما ركزوا على القدر ، وأن كل شئ من تصريف الله - تعالى - إلا ضمانا لصحة النفس ، حتى تقوم بواجبها أتم قيام .

وإذا رجعنا إلى كلامهم وجدناهم ينبهون على أن ما يجرى على العبد فى وقته من حال ، أو أمر عليه الرضا والاستسلام لله فيما أجراه ما دام هذا الأمر مباحا شرعا ، أما ما لم يبحه الشرع فلا بد من التحول عنه .

أما فيما يتصل بأمر المعاش ففرق بين أمرين :

- بين أن يرضى الإنسان - نفسيا - بما قسمه الله له ، ولا يشغل نفسه بغيره .
- وبين أن يأخذ فى الأسباب - عمليا - بحثا عن قدر الله أيضاً ، فذلك غيب . ولامنافاة بين الأمرين .

والصوفية من خلال نصوصهم لا يمانعون من تحقيق الأمر الثانى مع المحافظة على رضى النفس بما يجريه الله عليها فى كل الأحوال .

ولم يرض الصوفية باللحظة الحاضرة ، معللين لها بأنها قدر أجراه الله عليهم ليقضوها فى ملاذ الحياة ، والاستغراق فى الشهوات ، بل ليعمروها بعمل الآخرة ، التى هى الحياة الحقيقية ، كما قال الله - تعالى -

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وكل ما يقال عن اللحظة الحاضرة يصلح - كما يقول الدكتور يوسف القرضاوى :-

" لأن يقوله المؤمنون المستقيمون ، والماديون المتحللون " (٢) .

وكم من انسان ينتفع بقليله الذى قسمه الله له مالا ينفع غيره بأكثر الكثير .

والفرق بين الشخصين : أن الأول استقبل فضل الله بنفس راضية ، والثانى مشغول بما ليس فى يده ، فلا عملاً أتقن ، ولا ثمارا اقتطف .

وهذا ما عناه ابن عطاء الله حين قال : - " لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج " (٣) .

وما سيأتى من حديث عن " حقوق الأوقات " يرينا البون الشاسع بين من يعيش وقته فى مرضاة ربه ، متبصراً بالماضى ، عاملا بالمستقبل ، وبين من يعيش فى لهوه ، وغفلته ، مغمضا عينيه عن الماضى والمستقبل معا .

خير الأوقات

ومادام أدب الوقت يقتضى ألا يطلب العبد الانتقال منه إلى غيره بذاته هو ، إنما يترك الأمر لتصريف الله - تعالى - ، وإرادته ، ينقله أو يبقيه ، فهو - تعالى - ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (٤) ، فهذا يعنى إعلان الافتقار إلى الله ، والتذلل إليه .

---

(١) سورة العنكبوت . الآية : ٦٤ .
(٢) الوقت فى حياة المسلم . ط . مؤسسة الرسالة . بيروت . صـ : ٤٥ .
(٣) شرح الشرقاوى على الحكم . جـ ١ . صـ : ٢١ .
(٤) سورة البروج . الآية : ١٦ .

لذا نجدنا ابن عطاء الله يعتبر وقت استشعار الافتقار إلى الله ، والتذلل إليه خير وقت يعيشه الإنسان إذ يقول : " خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وترد فيه إلى وجود ذلتك " (١) .

وهذه الحكمة تشير إلى أن الافتقار إلى الله ، والذلة له أمران موجودان ، عرفهما العبد أم لم يعرفهما ، لكن حينما يدرك العبد افتقاره إلى ربه ، وذلته له فقد شهد ما هو موجود سلفا ، وظهر عليه ما هو كامن .

يقول ابن عجيبة شارح الحكم : " فإذن خير أوقاتك أيها المريد وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، أى ظهورها ، وإلا فهى كامنة فيك .... فهى خير لك من ألف شهر إن عرفت فيها ربك .... ، وخير أوقاتك أيضا وقت تشهد فيه وجود ذلتك .... ؛ لأنه سبب عزك ونصرك " (٢) .

حقوق الأوقات

رأينا أن الصوفية ما بلغ بهم الاهتمام بالوقت هذا المبلغ ، وجعلوا من آدابه عدم الالتفات إلى غيره إلا لأداء ما عليهم من حقوق تجاه ربهم :

- حق الله على عباده أن يعبدوه وحده بما فرضه عليهم من عبادات .
- وحقه عليهم كذلك أن يراقبوه – تعالي – فى السر والعلن .

أما العبادات فلها أوقاتها التى تؤدى فيها .

وأما مراقبة الله – تعالى – فهى مطلوبة فى كل وقت ، لا تختص بوقت دون وقت .

من هنا وجدنا الوقت ملهما ابن عطاء الله تقسيم الحقوق قسمين :

- حقوق الأوقات .
- وحقوق فى الأوقات .

---

(١) إيقاظ الهمم فى شرح الحكم لابن عجيبة . صـ : ٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق . صـ : ٢٤٧ . بتصرف .

يقول : " حقوق فى الأوقات يمكن قضاؤها ،

وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها " (١) .

فالعبادات التى حدد لها الشرع وقتا محددا هى حقوق الله على عباده تؤدى فى أوقات فهى " حقوق فى الأوقات " ، فإذا لم تؤد فى أوقاتها المحددة أمكن للعبد أن يقضيها فى وقت آخر ، كالصلاة ، والصوم .

أما إذا فاتت مراقبة العبد لربه فى وقت من الأوقات فهل من الممكن أن يستدرك ذلك فى وقت تال ؟

هذا ما لا يمكن ؛ فإن لكل وقت حقه ، فهذا " حق الوقت " ولا يؤدى حقان فى وقت واحد .

يقول ابن عطاء الله معللا عدم قضاء حق الأوقات : " إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد ، وأمر أكيد ، فكيف تقضى فيه حق غيره وأنت لم تقض حق الله فيه " (٢) .

ويقول ابن عجيبة : " فإن غفلت عن الحق الجديد ، أو الأمر الأكيد في وقت ما، ودخل الوقت الثاني فقد فاتك القضاء ، وندمت على ما مضى ، فكيف يمكن أن تقضى فى الوقت الثانى حق غيره وهو أيضا له حق يجب عليك أن تؤديه فيه ، فلا يمكنك أن تقضى حق الوقت الأول فى الوقت الثاني وأنت لم تقض حق الله فيه ، أى فى الوقت الثانى .

والحاصل أن كل وقت له حق ، فإن فات فلا قضاء له ؛ ولذلك قالوا فى الآداب : التصوف ضبط الأنفاس ، وحفظ الحواس ، والأنفاس هى دقائق الساعات ، وضبطها هو عمارتها بأنواع الطاعات ، فإذا ضيع حقوق الساعات خرج عن أداب التصوف " (٣) .

---

(١) المرجع السابق . صـ : ٤٤٤ .

(٢) المرجع السابق . والصفحة .

(٣) المرجع السابق . والصفحة .

والأوقات عند أبى العباس المرسى ، ذات حقوق أربعة :- فهى اما وقت نعمة ، أو وقت بلية ، أو وقت طاعة ، أو وقت معصية .

أما عن حقوقها فيقول : " ففى النعمة الشكر ، وفى البلية الصبر ، وفى الطاعة شهود المنة ، وفى المعصية الملجأ والإنابة " (١) .

وأداء هذه الحقوق الأربعة من مظاهر المراقبة التى هى حق الوقت .

واذا كان الشكر حال النعمة ، والصبر حال البلية ، وشهود المنة والفضل الإلهى حال الطاعة أمورا متوقعة فإن اللجوء إلى الله - تعالى - والإنابة إليه وطلب العفو عن الذنب أثناء المعصية أمر غير متوقع .

وعلى فرض حصوله في أثناء المعصية فإنه والحالة هذه يبرهن على عدم الصدق فى هذه الإنابة ، وهذا اللجوء إلى الله .

وإلا فكيف تلتقى المعصية والإنابة إلى الله فى آن واحد إلا إذا كان صاحبها كاذبا فى هذه الإنابة ؟

فلو أناب إلى الله صادقا فى هذا الوقت لأقلع عن المعصية .

نعم ، الإنابة إليه - تعالى - بعد حصول المعصية بما يسبب الندم على المعصية ، والعزم على عدم العود إليها أمر وارد ومعقول .

لهذا السبب وغيره وجدنا ابن عجيبة يجعل القيام بحقوق الأوقات أمرا متعذرا فى حق البشر ، فيقول : " واعلم أن القيام بحقوق الأوقات على التمام يكاد يكون متعذرا في حق البشر ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (٢) .

فلهذا كانت حقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها ؛ لأنها راجعة لحفظ الأنفاس والخطرات ، وقد أعيا الرجال حفظها فى حال الصلاة ، فكيف فى كل وقت .

لكن قد " يختص برحمته من يشاء " (٣) .

---

(١) المرجع السابق . والصفحة .   (٢) سورة الزمر . الآية : ٦٧ .

(٣) سورة آل عمران . الآية : ٩٤ ، وانظر إيقاظ الهمم . صـ : ٤٤٦ .

عواقب تضييع الوقت

ان الشعور بقيمة الوقت يختلف من شخص لآخر وكيفية الحفاظ عليه بالتالى تختلف أيضا من شخص لآخر .

فحفاظ عامة الناس على الوقت حسب منزلتهم التى هم عليها ، فهم إذا أدوا واجباتهم ، وابتعدوا عما نهوا عنه فقد حافظوا على أوقاتهم ، فإذا قصروا فى واجب ، أو انتكهوا محرما فذلك تضييع للوقت بالنسبة لهم ، عليهم أن يتوبوا منه .

لكن الصوفية لا يقفون عند هذا النوع طويلا ، وإن كانوا يضعونه فى حسبانهم .

إنهم إذا تحدثوا عن الوقت وحفظه فإنمايكون ذلك حديث الخواص ،

فللوقت عندهم فهم خاص ، وحفظه كذلك يكون على طريقتهم الخاصة .

- حفظهم للوقت تدرج فى سلم الكمال ، والقرب من الله .
- حفظهم للوقت دوام للمراقبة لله فى كل نفس من أنفاسهم .
- حفظهم للوقت صفاء الأنس مع الله .

فإذا اختل شئ من ذلك فإنما هو نذير تضييع الوقت ، وتوبتهم هنا تتحتم ، لاستدراك مافات ، أو لاستجماع الهمة من جديد .

يقول الهروى : "توبة الخواص من تضييع الوقت

فإنه يفضى إلى :

- درك النقيصة ،
- ويطفئ نور المراقبة ،
- ويكدر عين الصحبة " (١) .

---

(١) مدارج السالكين . جـ ١ . صـ ٢٦٦ .

ويبين ابن القيم فى شرحه مراد الهروى من تضييع الوقت عند الخواص ، فيقول : " ليس مراده بتضييع الوقت إضاعته فى الاشتغال بمعصية ، أو لغو ، أو الإعراض عن واجبه وفرضه ؛ فإنهم لو أضاعوه بهذا المعنى لم يكونوا من الخواص ، بل هذه توبة العامة بعينها [(١)] .

ولأن الصوفية يفهمون الوقت فهما خاصا - كما سبق - " فتوبة هؤلاء من إضاعة هذا الوقت الخاص الذى هو وقت وجد صادق وحال صحيحه مع الله لا يكدرها الأغيار " [(٢)] .

فماذا عن هذه الأمور الثلاثة التى يفضى إليها تضييع الوقت عند الخواص ؟

أما عن الأمر الأول ، وهو التقهقهر إلى درك النقيصة فيشرحه ابن القيم مفلسفا إياه قائلا : - " والقصد : أن إضاعة الوقت يدعو إلى درك النقيصة ؛

إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال .

فإذا أضاعه لم يقف موضعه ، بل ينزل إلى درجات من النقص ، فإن لم يكن فى تقدم فهو متأخر ولا بد ،

فالعبد سائر لا واقف ، فإما إلى فوق ، وإما إلى أسفل ، وإما إلى أمام ، وإما إلى وراء ،

وليس فى الطبيعة ولا فى الشريعة وقوف البتة ،

ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طى ، إلى الجنة ، أو إلى النار ، فمسرع ومبطئ ، ومتقدم ، ومتأخر .

وليس فى الطريق واقف البتة ،

وإنما يتخالفون فى جهة السير ، وفى السرعة والبطء .

﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [(٣)]

---

(١) المرجع السابق والصفحة . (٢) المرجع السابق . جـ ١ . صـ : ٢٦٧ .

(٣) سورة المدثر . الآية ٣٥ - ٣٧ .

ولم يذكر واقفا ؛ إذ لا بين الجنة والنار ، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة ، فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك االأعمال السيئة " (١) .

وإذا كان الحفاظ على الوقت بالنسبة للخواص ترقيا فى درجات الكمال مفهوما فكيف يفهم تضييع الوقت يالنسبة لهم على أنه ترد إلى النقيصة ، ورجوع إلى الوراء ، مع أنهم لم يقترفوا من المنهيات ، أو لغو الأمور مايسبب لهم ذلك ؟ ،

بل على العكس من ذلك إنهم بحكم كونهم خواص يلتزمون بأداء الطاعات ، واجتناب المنهيات .

هل مجرد توقفهم عما استمر فيه غيرهم فى الترقى هو الذى جعل الهروى يصف هذا التوقف بأنه هوى إلى درك النقيصة ؟

فهو تأخر نسبى وتقهقر إلى الوراء بالمقارنة بمن حفظ وقته فتقدم إلى الأمام ،

وماذا عمن يحفظ وقته من الخواص ومع ذلك يقف وقفة ليستأنف السير من جديد ؟

أتعد هذه الوقفة نكوصا إلى درك النقيصة مع أنه لا يستغنى عنها أحد فى سلوكه ؟

يجيب ابن القيم عن هذه التساؤلات فى قوله : " فإن قلت : كل مجد فى طلب شئ لا بد أن يعرض له وقفة وفتور ، ثم ينهض إلى طلبه .

قلت : لا بد من ذلك ،

ولكن صاحب الوقفة له حالان :

- إما أن يقف ليجم (٢) نفسه ، ويعدها للسير ،

---

(١) مدارج السالكين . جـ ١ . صـ : ٢٦٧ .

(٢) يجم نفسه : يريحها . لسان العرب . مادة : جمم . صـ : ٦٨٧ .

فهذا وقفته سير ، ولا تضره الوقفة ؛

فإن لكل عمل شرَّة ، ولكل شرَّة فترة (١) .

– وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه ، وجاذب جذبه من خلفه ، فإن أجابه أخره ولا بد ، فإن تداركه الله برحمته ، وأطلعه علي سبق الركب له ، وعلى تأخره نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع ، ووثب ، وجمز (٢) ، واشتد سعيا ليلحق الركب ،

وإن استمر مع داعى التأخر ، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة ، وإجابة داعي الهوى حتى يرده إلى أسوأ منها ، وأنزل دركا ، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض ، فإنها أخطر منه وأصعب .

وبالجملة : فإن تدارك الله – سبحانه وتعالى – هذا العبد بجذية منه من يد عدوه وتخليصه وإلا فهو فى تأخر إلى الممات ، راجع القهرى ، ناكص علي عقبيه ، أو مول ظهره ، ولا قوة إلا بالله ، والمعصوم من عصمه الله " (٣) .

إن الذى غفل عن وقته من الخواص قد ضيعه ، فتردى فى دركات النقيصة من عدة اعتبارات :

الأول : إنه إذا قارن حاله بحال من حفظ وقته وجد المسافة تتسع بينه وبين ذلك الذى ترقى فى درجات الكمال ، فأدرك أن من حفظ وقته كلما ترقى فى درجات الكمال كلما تدنى هو بتضيبيعه وقته فى دركات النقص .

---

(١) الشرَّة : النشاط والرغبة . وفى الحديث : " لكل عابد شرَّة " . لسان العرب . مادة : شرر . صـ ٢٢٣٢ .

(٢) جمز : بمعنى أسرع . لسان العرب . مادة : جمز . صـ : ٦٧٧ .

(٣) مدارج السالكين . جـ ١ صـ : ٢٦٧ .

الثانى : أن الذى يتوقف عن السير فى سلوكه وإن كان فى ظاهر الأمر متوقفا إلا أن الدافع إلى هذا التوقف هو الذى يحكم عليه بأنه يسير إلى الأمام ، أو يتقهقر إلى الوراء أو يرتقى متساميا ، أو يتدنى متهاويا .

فإن كان الدافع هو التقاط الأنفاس باستئناف المسير ، واستجماع الهمة فهو سائر فى وقفته .

وإن كان الدافع هو جاذب جذبه إلى التراخى والتأخر فهو فى هذه الحالة ناكص على عقبيه وإن كان فى صورة متوقف .

وإذا استمرأت النفس التراخى أدمنته ، فيمر كل وقت يزداد صاحبها تقهقراً وترديا ، إلا إذا تدارك الله – تعالى – عبده ، كما صور ابن القيم هذه الأحوال خير تصوير .

الثالث : أن تضييع الوقت فى نظر الخواص معناه عدم الوفاء بحقوق الأوقات التى لا يمكن قضاؤها ، فهو وإن كان توقفا عن الترقى إلا أنه تقصير فى " حق وقت " لا يمكن استرجاعه ، والتقصير فى أداء الحق ترد في مهاوى النقيصة .

وأما الأمران الآخران الناتجان عن تضييع الوقت عند الخواص فيقول عنهما ابن القيم فى شرحه لـ (منازل السائرين) : – " وقوله : ويطفئ نور المراقبة يعني : أن المراقبة تعطى نورا كاشفا لحقائق المعرفة والعبودية ، وإضاعة الوقت تغطى ذلك النور وتكدر عين الصحبة مع الله ،

فإن صاحب الوقت مع صحبة الله ، وله مع الله معية خاصة ، بحسب حفظه وقته مع الله ،

فإن كان مع الله كان الله معه ،

فإذا أضاع وقته كدر عين هذه المعية الخاصة ، وتعرض لقطع هذه الصحبة ،

فلا شئ أضر على العارف بالله من إضاعة وقته مع الله ، ويخشى عليه إن لم يتداركه بالرجوع أن تستمر الإضاعة إلى يوم القيامة ، فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره وندامته ، وحجابه عن الله أشد من حجاب من سواه [١] .

ويكون حاله شبيها بحال قوم يؤمر بهم إلى الجنة حتى إذا عاينوها وشاهدوا ما فيها صرفت وجوههم عنها إلى النار .

فإن توبة الخواص تكون من تضييع أوقاتهم مع الله التى تدعو إلى هذه الأمور " [٢] .

الغيرة على الوقت

يعرف الهروى الغيرة بقوله : - " الغيرة سقوط الاحتمال ضنا ، والضيق عن الصبر نفاسة " [٣] .

فالغيور يعجز عن تحمل الانشغال بشئ غير المحبوب ، لأنه يبخل بمحبوبه أن ينشغل عنه بغيره .

وهذا البخل هو محض الكرم عند المحبين الصادقين [٤] .

كما أن الغيور يضيق عن الصبر عن محبوبه ، لشدة رغبته فيه .

ولأن وجهة الصوفية هى المولى - تعالى - فإن كل وسيلة إليه إنما هى محببة إليهم ، ولا شئ أكثر من الوقت وسيلة إلى الرب - تبارك وتعالى - وقد مر بنا قول أبى سعيد الخراز : - " لا تشغل وقتك العزيز إلا بأعز ما هو موجود " .

لهذا كانت غيرتهم على الوقت أمرا لاغرابة فيه ، بل لا محيص عنه .

---

(١) تلك أذواق خاصة ، يرى أصحابها أنهم أشد الناس حجابا عن الله - تعالى - أما حقيقة الأمر فلا يمكن أن يكون العارف بربه ، المحافظ على حدوده أشد حجابا عن الله من المتردى فى المعاصى ، البعيد عن الله كل البعد .

(٢) مدرج السالكين . جـ ١ . صـ : ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٣) المرجع السابق . جـ ٣ . صـ : ٤٧ .

(٤) المرجع السابق والصفحة .

وما اهتمام الصوفية بالوقت لهذه الدرجة إلا غيرة منهم عليه أن يضيع سدى فيما لا يجدى ، وما لا يوصلهم إلى هدفهم المنشود .

هذا على الإجمال .

أما على التفصيل فالغيرة على الوقت تأخذ منحيين :

الأول : غيرة على وقت حافظوا عليه بأن أدوا حقوق الله فيه ، وراقبوه تعالى فيه .

والثانى : غيرة على وقت أضاعوه ، ولم يوفوه حقه كما ينبغى ، بما يتفق مع طموحاتهم .

أما الغيرة من النوع الأول فإنها تستلزم الاستمرار في المحافظة والمراقبة .

يقول أبو بكر الترمذى : " إذا سلم وقت من أوقاتك من الغفلة فغر على ذلك الوقت أن تتبعه بما يخالفه ؛ فإن مخالفة الأوقات على المرور من اعوجاج الباطن " (١) .

فاستقامة الباطن تقتضى استقامة الأوقات المتتابعة بسلامتها من الغفلة ،

فإذا سارت سيرا معوجا فذلك بسبب اعوجاج الباطن .

فلما كان هذا الوقت الذى سلم فيه الصوفى من الغفلة محبوبا – وهو منقض لا محالة – أصبح يغار عليه أن يخلفه وقت مخالف له ، بأن يكون غافلا فيه .

فالغيرة تؤدى إلى استمرار المراقبة مع تتابع الأوقات ، وهذا يكلف الصوفية كثيرا ؛ لذا كان التصوف عندهم ضبط الأنفاس ، وحفظ الحواس .

وأما الغيرة على الوقت بالمعنى الثانى فلم تكن غيرة على وقت أضاعوه لأنهم لم يؤدوا فيه حقه من العبادات والأعمال ما شرعه الله فيه ،

---

(١) طبقات الصوفية . صـ : ٢٨٣ .

فتلك غيرة العامة كما يذكر الهروى وهى ما أضاعوه من حقوق الأوقات كما ذكر ابن عطاء الله السكندرى .

وإنما هى غيرة المريد .

غيرة المريد عندهم تختلف عن غيرة العابد ؛ لأن الوقت عند كل منهما له معنى يختلف عن معناه عند الآخر .

فالوقت عند العابد هو وقت العبادة والأوراد ، وعند المريد هو وقت الإقبال على الله ، والجمعية عليه ، والعكوف عليه بالقلب كله " (١) .

ولما كان المريدون أرباب أحوال فإن غيرتهم على الوقت الذى فات غيرة على الحال الوارد الذى انقضى بانقضاء الوقت .

وهذه الغيرة يقول عنها الهروى : " وهي غيرة قاتلة ، فإن الوقت وحيّ التقضى ، أبيّ الجانب ، بطيّ الرجوع " (٢) .

بمعنى أن الوقت منقض بذاته ، منصرم بنفسه ، فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته ، وعظم فواته ، واشتدت حسراته ، فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع ، وطلب الرجعى ، فحيل بينه وبين الاسترجاع ، وطلب تناول الفائت " (٣) .

وإذا كانت الغيرة بالمعنى الأول أمرا إيجابياً يدفع إلى استمرار المحافظة على الوقت ، وعدم الغفلة عنه فإن الغيرة بالمعنى الثانى أمر سلبى ؛ لأنها حسرة النفس على ما فات ، والحسرة على وقت فات تفويت لوقت حال ؛ ولهذا وصفها الهروى بأنها غيرة قاتلة .

---

(١) مدارج السالكين . جـ ٣ . صـ : ٤٩ ، وهذان المعنيان اللذان ذكرهما ابن القيم هنا هما ما عناهما ابن عطاء بتقسيم الحقوق إلى : حقوق فى الأوقات ، وحقوق الأوقات ، والوقت بالمعنى الثانى الذى هو عند المريد هو مراقبة الله – تعالى – : لذا يذكر ابن القيم أن الغالب على اصطلاح الصوفية فى معنى الوقت أنه من الأقبال على الله بالمراقبة ، والحضور ، والفناء فى الوحدانية . انظر مدراج السالكين . جـ ١ صـ : ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق . جـ ٣ . صـ ٤٩ .

(٣) المرجع السابق . جـ ٣ . صـ : ٥٠ .

يقول ابن القيم فى شرحه لهذا الوصف الذى وصف به الهروى الغيرة سابقا :-

" يعنى : مضرة ضرراً شديداً بيِّنا ، يشبه القتل ؛ لأن حسرة الفوت قاتلة ، ولا سيما إذا علم المتحسر أنه لا سبيل إلى الاستدراك " (١) .

وهذا الوصف لهذه الغيرة ليس مقصوداً له إقرارها ، وتحبيذها ، وإنما المقصود أن يستقبلها المريد بوعى ، ويحسن التخلص منها ، باختيار ما هو أنفع وأجدى ، فهى بحكم أنها حالة وجدانية لا بد أن تلم بالمريد ، لكن إرادته تجعله يختار ما ينفعه من بين غيرته على ما فات من وقت .

يقول ابن القيم : - " والمقصود أن الواردات سريعة الزوال ، تمر أسرع من السحاب ، وينقضى الوقت بما فيه ، فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه .

فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك ، فإنه عائد عليك لا محالة ، لهذا يقال للسعداء : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (٢) ، ويقال للأشقياء : - ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ (٣) .

صاحب الوقت

يختلف الصوفية فى تحديد صاحب الوقت ، من هو ؟ تبعا لاختلافهم فى تحديد معني الوقت ، وبالتالى فهم يختلفون فى منزلة صاحب الوقت بين منازل السائرين إلى الله تعالى .

لهذا آثرنا أن نذكر رأى الهجويرى وابن عربي فى صاحب الوقت ، وحديث الهروى عن درجات الوقت ، وتقسيم ابن القيم للصوفية ، لنعرف منزلة أصحاب الوقت بين هذه الأقسام .

---

(١) المرجع السابق . جـ ٣ . صـ : ٤٩ . (٢) سورة الحاقة . الآية : ٢٤ .

(٣) سورة غافر . الآية : ٧٥ . وانظر مدارج السالكين . جـ ٣ . صـ : ٥٠ .

صاحب الوقت عند الهجويرى :-

يتضح تحديد الهجويرى لصاحب الوقت ، ومنزلته بمقارنته بين الوقت وصاحبه وبين الحال وصاحبه .

فهو حينما يعرف الحال يقول : - " ما ينزل على الوقت فيحمله كما يحمل الروح الجسد " (١) .

فالوقت مع أنه وعاء للحال وظرف له إلا أن الحال حامل للوقت .

وهذا يبين العلاقة بين الحال والوقت عند الهجويرى .

فالحال فى حاجة إلى الوقت لأنه وعاؤه الظرفي ، والوقت فى حاجة إلى الحال أكثر لأنه محمول بالحال ، مستمر به ، فالحال بالنسبة للوقت كالروح بالنسبة للجسد .

يقول الهجويرى : - " فالوقت يحتاج إلى الحال لأنه يتحمل به ، ويدوم به ، فإذا منح صاحب الوقت الحال فإنه لا يكون عرضة للتحويل ، وبذلك يصير مستقيما فى مجاهداته ؛ لأن من كان عنده الوقت بغير حال ربما فقده ، أما إذا اتصل الحال صارت كل أيامه وفقا لما يجرى عليه الزوال ، فلا يفقد شيئا " (٢) .

وهنا تبدو ملامح التفرقة بين صاحب الحال وصاحب الوقت عند الهجويرى .

فصاحب الوقت يختلف عن صاحب الحال ، والثانى أرسخ قدما من الأول ؛ لذا كان الوقت فى حاجة إلى الحال ، ليدوم ولا يتعرض للزوال .

ومن هنا فإذا انضم الحال إلى الوقت فقد أصبح صاحب الوقت صاحب حال .

فكل صاحب حال هو صاحب وقت ، وليس كل صاحب وقت صاحب حال .

---

(١) كشف المحجوب . صـ : ٤٤٧ .　　(٢) المرجع السابق والصفحة .

ولهذا السبب " فصاحب الوقت ربما غفل ، ولكن صاحب الحال لا يغفل أبدا ..... ؛

لذلك فالدنيا فى بعض الأحوال تكون كالنار لصاحب الوقت ؛ لأنه يشعر بالغيبة ، ويتألم قلبه بفقد محبوبه ، وفى بعض الأحوال يكون قلبه كالجنة بنعمة المشاهدة ، بيد أن صاحب الحال لا يميز بين حجابه بالبلوى ؛ ولاكشفه بالنعمى ؛ لأنه دائما فى مقام العيان .

فالحال صفة المراد ، والوقت مقام المريد ،

فالآخر مع نفسه فى صفاء وقته ، والأول مع ربه فى صفاء حاله .

فشتان بين المنزلتين " (١) .

مما سبق يتضح لنا مايلى :

١- أن صاحب الوقت يختلف عن صاحب الحال نظرا للفرق بين الوقت والحال .

٢- أن صاحب الوقت فى حاجة إلى الحال ، لدوام وقته ، وعدم زواله ، فإذا انضم إليه الحال فقد صار صاحب حال ، علاوة على أنه صاحب وقت .

٣- أن صاحب الحال صاحب كشف وعيان ، يجعله مع الله فى صفاء دائم ، بينما صاحب الوقت يعيش مع نفسه بكل تقلباتها فى صفاء وقته .

٤- أن صاحب الوقت منزلة للمريد ، وهو المبتدئ ، أما صاحب الحال فهو صفة للمراد ، والمريد سالك الطريق ، منتقل بين مقاماته ، والمراد منته إلى غاية الطريق (٢) .

---

(١) المرجع السابق . صـ : ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٢) يقول القشيرى : " المريد هو المبتدى ، والمراد هو المنتهى ، والمريد الذى نصب بعين التعب ، وألقى فى مقاساة المشاق ، والمراد الذى كفى بالأمر من غير مشقة ، فالمريد متعن ، والمراد مرفوق به ، مرفه " . الرسالة القشيرية . صـ : ١٥٩ .

وبهذا يكون صاحب الوقت أقل منزلة من صاحب الحال .

وقد عد الهجويرى يعقوب – عليه السلام – صاحب وقت – وإبراهيم عليه السلام صاحب حال .

أما أن يعقوب صاحب وقت فلأنه فقد بصره بالفرق حتى رد إليه بالوصل ، فهو حينا من الغم كالشعرة وحينا من النواح كالغصة ، وحينا من الروح كالروح ، وحينا من السرور كالسرور .

أما سيدنا إبراهيم – عليه السلام – فإنه صاحب حال ؛ لأنه لا يشعر بالفرق حتى يحزن ولا بالجمع حتى يفرح ، ومشاهده فى الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والليل ، على حاله ؛

لأنه فى حال نظره إليها كان محفوظا من الاشتغال بها ، وحينما توجه رأى ربه فقال :– ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ (١) .

وتفرقة الهجويرى بين الوقت والحال تشير إلى أنه من بين القائلين بدوام الأحوال والقول بدوام الأحوال ، وعدمه مسألة خلافية بين الصوفية (٢) .

صاحب الوقت عند ابن عربى :-

إذا كان الهجويرى يضع أصحاب الوقت فى منزلة دون منزلة أصحاب الحال فإن ابن عربى على العكس من ذلك ، فأصحاب الوقت عنده فى نهاية الطريق الصوفى ؛ لذلك فمقام الوقت " عزيز الوجود فى أهل الله ، هو لآحاد منهم من أهل المراقبة " (٣) .

يصف ابن عربى أصحاب الوقت بقوله : – " لا يغفلون عن حكم الله فى الأشياء ، كما لا يغفلون عن الله تعالى .

---

(١) سورة الأنعام . الآية : ٧٦ . ، وانظر : كشف المحجوب . صـ ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٢) راجع كشف المحجوب. صـ : ٢١٦ ،، وعوارف المعارف على هامش الإحياء. جـ٤ . صـ : ٢٨١ .

(٣) الفتوحات المكية . جـ ٢ . صـ : ٣٩ .

فهم جمعوا بين الأمرين :

– عدم الغفلة عن حكم الله فى الأشياء .

– وعدم الغفلة عن الله .

ومن لم يغفل عن حكم الله فى الأشياء لم يغفل عن الله ، بخلاف العكس .

لذا فقد زلت أقدام طائفة من أهل الحضور مع الله فى كل شئ ، فهم لا يغفلون عن الله طرفة عين ، ولكنهم يغفلون عن حكم الله فى الأشياء ، أو بعضها ، أو فى أكثرها ،

أما من جمعوا بين الحضور مع الله ومع حكمه فهم أكثر علما ، وأعظم سعادة .

وهؤلاء أصحاب الوقت " (١) .

فأصحاب الوقت إذن عند ابن عربى هم أهل المراقبة ، بل هم قلة قليلة من أهل المراقبة .

وأهل المراقبة فى حالة صحو ؛ لأن حضورهم مع الله لا يجعلهم يغفلون عن حكم الله فى الأشياء .

فهم مع الله ومع حكم الله فى آن واحد .

وهذا ما يتطلبه الوقت ؛ لذا كان أصحابه هم من كانوا بهذه الصفة .

ولأنهم جمعوا بين الحضور مع الله والحضور مع حكمه فهم أيضا جمعوا بين العلم والسعادة ، فهم أكثر علما ، وأكثر سعادة من غيرهم .

ولا يفوت ابن عربى هنا أن يقارن بين من لم يغفل عن حكم الله وبين من لم يغفل عن الله .

---

(١) المرجع السابق والصفحة . ولسنا نتفق مع ابن عربى فى أن الحضور مع الله يمكن لصاحبه ألا يكون حاضرا مع حكم الله ، فالذي يكون حاضرا مع ربه يتحتم عليه أن يكون مراعيا لأحكامه ، فهي حاضرة أمامه بسبب حضوره مع ربه ، ولولا ذلك لما كان للحضور مع الله قيمة تذكر .

فالذى لم يغفل عن حكم الله فى الأشياء لا يغفل عن الله .

أما من لم يغفل عن الله فقد يغفل - فى نظره - عن حكم الله في الأشياء كلها ، أو أكثرها ، أو بعضها .

أما عن كيفية عدم الغفلة عن حكم الله فى الأشياء والتى تتضمن عدم الغفلة عن الله - تعالىٰ - فيقول ابن عربى : " ومن أحكامه فيهم [أهل الوقت] وفى غيرهم أن الله رتب لهم أموراً معتادة ، يتصرفون فيها بحكم العادة ، مما لا جناح عليهم فيها ، أو مما قد اقترن به خطاب من الحق بأنه قربة ، فيختارون لأنفسهم فعل ذلك على جهة القربة ، إن كان من القرب ، أو على كونه مرفوع الحرج ، فيصادفهم من الحق أمر لم يكن فى خاطرهم ، ولا اختاروه لأنفسهم ، فيعلمون أن الوقت أعطى ذلك الأمر ، وأن الله اختاره لهم .

فإذا علم العبد ذلك سلم الحكم فيه لله ، واستسلم ، وكان بحكم وقته ما يمضيه الله فيه ، لا بحكم ما يختاره لنفسه فى المنشط والمكره ، ويرى أن الكل له فيه خير ، فيعامله الله فى كل ذلك بخير ، فإن كان وقته يعطى نعمة ، وكان عقده مع الله مثل هذا رزقه الشكر عليها ، والقيام بحق الله فيها ، وأعين عليها ، وإن كان بلاءً رزق الصبر عليه ، والرضا به ، وجعل الله له مخرجا من حيث لا يحتسب .

فإذا اقتضى الحق أمرا ، وكان له بك عناية أجراه عليك ، ورزقك القيام بحقه " (١) .

من خلال النص السابق نرى ابن عربى يذكر ثلاثة أنواع لأحكام الله ، وهى :-

١- ما كان قربة لله ، متمثلة فى اتباع أوامر أو اجتناب نواه ، مما شرعه الله لعباده .

---

(١) الفتوحات المكية . جـ ٢ . صـ : ٣٩.

٢- ماكان من قبيل المباحات .

وهذان الأمران يظهر فيهما اختيار العبد ، فيفعل المأمور ، ويجتنب المنهى ويختار فعل المباح أو تركه .

٣- ما اختاره الله للعبد من نعمة أو بلية ، مما لا يد له فيه .

والحضور مع هذه الأحكام باعتبارها أحكام الله - فالأول والثانى شرعهما الله ، والثالث قضاء الله وقدره - هو الالتزام بما شرعه الله في المأمورات ، والمنهيات والمباحات ، والرضا ، والتسليم فيما قدره واختاره .

فمن كان هذا شأنه فهو لم يغفل عن حكم الله فى الأشياء ، وبالتالى فهو لم يغفل عن الله .

ولأن ابن عربى يرى أن صاحب الوقت يجمع بين الحضور مع الله ، والحضور مع حكم الله - كما سبق - فإنه بهذا يجعل صاحب الوقت يجمع بين الجمع والتفرقة فى آنٍ واحد ، فالحضور مع الله جمع ، والحضور مع حكم الله تفرقة .

ولا يرى ابن عربي أن الوقت فى الجمع فقط ، بل يعد ذلك قصوراً ممن يرى ذلك ، وماذاك إلا لأن ابن عربى يقدم الصحو على الفناء والمحو .

يقول ابن عربى : - " فالوقت على الحقيقة عند الكامل جمع وتفرقة دائماً ، ومن الناس من يشهد التفرقة خاصة فى الجمع ، ولا يشهد جمع التفرقة ، فيتخيل أن ذلك عين الوقت ، فإذا سئل عن الوقت يشبهه بالمبرد ، فيقول : الوقت مبرد يسحقك ، ولا يمحقك ، يقول : يفرق جمعيتك ولا يذهب عينك .

فمن عرف الوقت ، وأن الحكم له فيه سكن تحت ما حكم به عليه" (١).

(١) المرجع السابق والصفحة .

تعقيب:-

إن جعل ابن عربى هؤلاء الذين يجمعون بين الحضور مع حكم الله والحضور مع الله هم أصحاب الوقت مع رفعه لأصحاب الوقت إلى قمة المقامات الصوفية دليل على أن التصوف عند ابن عربى فى أرفع درجاته ما هو إلا الاستمساك بالشريعة قلبا وقالبا .

وليس هذا مجرد استنتاج ، وإنما هو مصرح به فى (الفتوحات المكية) .

يقول ان عربى : - " فالعاقل من أهل الله من يرى أن الخير كله الذى يكون للعبد هو فيما اقتضاه الحق فيما شرع لعباده ، وبعث به رسوله - ﷺ - فمن استعمله الله فى اقتضاء الحق المشروع فما بعد عناية الله به عناية لمن عقل عن الله ، فالوقت المعلوم من جانب الحق هو عين ما خاطبك به الشرع فى الحال ، فكن بحسب قول الشارع فى كل حال تكن صاحب وقت " (١) .

صاحب الوقت عند الهروى:-

لم يتحدث اسماعيل الهروى فى كتابه (منازل السائرين) عن أصحاب الوقت صراحة ، وإنما ذكر معانى الوقت فى ثنايا حديثه عن منزلة الوقت ، بدرجاتها مما يفهم منه أن المتحقق بأى معنى من هذه المعانى ، ودرجة من هذه الدرجات يعد صاحب وقت عنده .

يقول الهروى :- " الوقت اسم لظرف الكون ، وهو اسم فى هذا الباب لثلاثة معان :-

على ثلاث درجات

المعنى الأول: حين وجد صادق

لإيناس ضياء فضل ، جذبه صفاء رجاء ،

---

(١) المرجع السابق . جـ٢ . صـ ٥٤٠ .

أو لعصمة ، جذبها صدق خوف ،

أو لتلهب شوق ، جذبه اشتعال محبة ،

المعنى الثانى: اسم لطريق سالك ،

يسير بين تمكن وتلون ، لكنه إلى التمكن ماهو، يسلك الحال ، ويلتفت إلى العلم ، فالعلم يشغله فى حين ، والحال يحمله فى حين فبلاؤه بينهما ،

يذيقه شهودا طورا ،

ويكسون عبرة طورا ،

ويريه غيرة تفرق طورا ،

والمعنى الثالث: قالوا : الوقت الحق ،

أرادوا به : استغراق رسم الوقت فى وجود الحق ،

وهذا المعنى يسبق على هذا الاسم عندى ، لكنه هو اسم في هذا المعني الثالث لحين تتلاشى فيه الرسوم كشفا ، لا وجودا محضا ، وهو فوق البرق ، والوجد ،

وهو يشارف مقام الجمع لو دام وبقى ،

ويبلغ وادى الوجود ،

لكنه يكفى مؤنة المعاملة ،

ويصفى عين المسامرة ،

ويشم روائح الوجود [1] .

ليس الوقت عند الهروى اسما لحالة واحدة ، كما هو الشأن عند الهجويرى ، وابن عربى ، لكنه اسم لمعان ثلاثة ، متدرجة تدرجا تصاعديا ، وكل معني منها له صفاته الخاصة .

---

(١) مدارج السالكين . جـ . صـ . ١٣١ – ١٣٧ بتصرف .

فالمعنى الأول عبارة عن حالة نفسية يجدها المريد فى نفسه فى بداية سيره ، وهو صادق فيها ، لا يدعيها تكلفا وتصنعا ، فالوجدانات لا تقبل التكلف .

وهذه الحالة النفسية التى يسميها الهروى " وجد صادق " :

- قد تكون رؤية قلبية لفضل الله - تعالى - يجذبها الرجاء الصافى.

- وقد تكون عصمة من الله - تعالى - يجذبها الخوف الصادق منه تعالى،

- وقد تكون شوقا ملتهبا من المريد إلى الله - تعالى - يجذبها الحب المشتعل الصادق .

إذن هذه الأحوال الوجدانية انتهت بصاحبها إما إلى الرجاء ، أو إلى الخوف ، أو إلى الحب .

وهذه الثلاثة - كما يقول ابن القيم - : - " هى التى تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه ، والأنفع له ، وهى أساس السلوك والسير إلى الله .

وقد جمع الله - سبحانه - الثلاثة فى قوله : - ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (١) .

وهذه الثلاثة هى قطب رحي العبودية ، وعليها دارت رحى الأعمال .

والمعنى الثانى للوقت هو الخطوة الثانية التى يخطوها المريد ، والتى أوصلت إليها الخطوة الأولى .

أنه طريق السالك

والسالك فى طريقه لا يسير على وتيرة واحدة ،

بل يسير بين تمكن ، وتلون ،

---

(١) سورة الإسراء . الآية : ٥٧ .

" والتمكن هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالشهود والحال ،
والتلون هو الانقياد إلى أحكام العبودية بالعلم ،
فالحال يجمعه بقوته وسلطانه ، فيعطيه تمكينا ،
والعلم يلونه بحسب متعلقاته وأحكامه ،
فهو سالك إلى التمكن مادام يسلك الحال ، ويلتفت إلى العلم .
فأما إن سلك العلم والتفت إلى الحال لم يكن سالكا إلى التمكن ، فالسالكون ضربان : سالكون على الحال ، ملتفتون إلى العلم ، وهو إلى التمكن أقرب ، وسالكون على العلم ملتفتون إلى الحال ، وهم إلى التلون أقرب " (١) .

فصاحب الوقت هنا فى نظر الهروى وهو السالك متقلب بين انشغاله بالحال عن العلم ، أو انشغاله بالعلم عن الحال .

فيصير السالك بين داعيين : داعى الحال ، وداعى العلم ، وذلك بلاء يعيشه السالك بسبب تجاذب هذين الداعيين له .

ينتج عن هذا البلاء أنه :

- يذيقه طورا من غلبة الحال عليه ،

ويكسوه عبرة طورا ، بأن يعتبر بأفعاله - تعالى - ، مستدلا بها عليه ،
" فالعلم يكسو صاحبه اعتبارا واستدلالا على الرب بأفعاله " (٢) .

ويريه عبرة تفرق طوراً ، " أى ويريه العلم عبرة تفرقه في أوديته ، فيفرق بين أحكام الحال وأحكام العلم ، وهو حال صحو وتمييز " (٣) .

فهذا المعنى للوقت تضمن ثلاث درجات : " درجة الحال ، ودرجة العلم ، ودرجة التفرقة بين الحال والعلم " (٤) .

---

(١) مدارج السالكين . جـ ٣ . صـ : ١٣٣ .
(٢) المرجع السابق . جـ ٣ . صـ : ١٣٦ .
(٣) المرجع السابق والصفحة .
(٤) المرجع السابق . جـ ٣ . صـ ١٣٧ .

والمعنى الثالث للوقت درجة أعلى من سابقتيها

إنه حالة من الكشف تغلب على قلب صاحبها ، فيتلاشى بسببها من الحس كل شئ سوى الله – تعالى – ، بما فى ذلك الوقت .

لكن كيف يتلاشى الوقت فى هذه الحالة مع أنها أحد معانى الوقت ؟

هنا يذكر الهروى السبب فى إطلاق الوقت على هذه الحالة ، مشيرا إلى أن قولهم : الوقت الحق فيه شئ من التسامح فى التعبير ، فمعنى الحق سابق على اسم الوقت .

فالسبب فى إطلاق الوقت على هذه الحالة الكشفية كون الوقت حيناً وظرفاً لهذه الحالة التى تتلاشى فيها الرسوم عن حس الصوفى .

وهذا المعنى الثالث للوقت منزلة فوق منزلة البرق والوجد ، ودون منزلة الجمع أو الوجود .

أما أنه منزلة أرفع من منزلة البرق والوجد فلأنه يثّبت ويدوم أكثر منهما ، وأما أنه فى منزلة دون منزلة الجمع فلأنه يشعر بالدوام فى هذا المعنى الكشفي ، فيكون بهذا فيه بقاء بعض رسوم صاحبه ، فليس معه استغراق فى الفناء ، أما الجمع أو الوجود فإنه لا يكون معه رسم باق .

ومع أن صاحب هذا المعنى الثالث للوقت فى منزلة متوسطة – كما ذكرنا – فإنه يقترب من مقام الجمع لو دام ، ولكنه لا يدوم .

وعدم بلوغ الوقت بمعناه الثالث إلى مقام الجمع لا يمنع أن له ثلاث فوائد :–

الأولى: أنه يكفى مؤنة المعاملة .

ومعنى هذا كما يقول ابن القيم : " يخفف عن العامل أثقال المعاملة ، مع قيامه به أتم القيام ، بحيث تصير هى الحاملة له ، فإنه كان يعمل على الخبر فصار يعمل على العيان " (١) .

---

(١) المرجع السابق . جـ . ٣ . : ١٤٠ ، ١٤١ .

الفائدة الثانية: أنه يصفى عين المسامرة " والمسامرة عند القوم هى الخطاب القلبى الروحى بين العبد وربه " (١) .

فهذا الكشف يخلص عين المسامرة من ذكر غير الله – سبحانه – ومناجاة غيره تعالى .

الفائدة الثالثة: أن صاحب الوقت هنا يشم روائح الوجود بمعنى أنه يقترب من مقام الجمع .

أصحاب الوقت بين أصحاب السوابق وأصحاب العواقب وأصحاب الحق:-

ومع ما ذكره الهروى من معان للوقت استوعبت تقريبا الطريق الصوفى ، وشارفت منتهاه ، وما قام به ابن القيم من شرح لمراد الهروى ، ومراد الصوفية من ورائه نجد ابن القيم يطالعنا بتقسيم للصوفية إلى أربعة أقسام ، بحيث يأتى أصحاب الوقت أصحاب اتجاه محدد من هذه الاتجاهات الأربعة للصوفية .

الصوفية فى هذا التقسيم الرباعى حسب الحالة التى يعيشونها .

وهذه الأقسام هى:

- أصحاب السوابق .
- وأصحاب العواقب .
- وأصحاب الوقت .
- وأصحاب الحق .

فأما أصحاب السوابق فقلوبهم أبدا فيما سبق لهم من الله ، لعلمهم أن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد ، ويقولون : من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل ، ففكرهم فى هذا أبداً .

ومع ذلك فهم يجدون فى القيام بالأوامر ، واجتناب النواهى ، والتقرب إلى الله بأنواع القرب ، غير واثقين بها ، ولا ملتفتين إليها .

---

(١) المرجع السابق . جـ ٣ صـ : ١٤١ .

وأما أصحاب العواقب فهم متفكرون فيما يختم به أمرهم ؛ فإن الأمور بأواخرها ، والأعمال بخواتيمها ، والعاقبة مستورة .

وأمـا أصـحـاب الوقت فلم يشـغلوا بالسـوابق ، ولا بالعـواقب ، بل اشتـغلوا بمراعـاة الوقت ، ومـا يلزمـهم من أحكامـه ، وقالوا : العـارف ابن وقته ، لا ماضى له ولا مستقبل .

وأمـا أصـحـاب الحق فـهم مع صـاحب الوقت والزمـان ، ومـالكهـمـا ، ومدبرهما ، مـأخوذون بشـهوده عن مشاهدة الأوقات ، لا يتفرغون لمراعـاة وقت ولا زمان " (١) .

وهذا التقسيم وإن كان مداره حسب الحالة الوجدانية التى يعيشـها الصـوفى لكن هذا لا يمنع أن يكون صـاحب كل قـسم من هذه الأقسـام فى حد ذاته صاحب وقت .

وكل من شغل وقته بأمر ما وجدانيا كان أم سلوكيا فهو صاحب وقت فيما هو فيه ، لذا وجدنا القسم الرابع هنا وهم أصحاب الحق يمثلون عند الهروى المعنى الثالث للوقت .

سبب اختلاف الصوفية فى الوقت

ومع أن الصوفيـة التقوا عند نقطة معينة فى الوقت وهـى : نفيـهم أن يكون الماضى والمستـقـبل ومـايحـمـلانه من أحـداث ضـمن الوقت إلا أننا وجدناهم يختلفون فى تحديد معنى الوقت ، وفى منزلة صاحب الوقت .

فما تفسير هذه الظاهرة ؟

يفسر ابن عربى ظاهرة اختلاف الصوفية فى الوقت فيقول : - " ولما كانت أذواق القوم فى الوقت تختلف لذلك اختلفت عباراتهم عنه .

والوقت حقيقة كل ما عبروا به عنه .

---

(١) المرجع السابق . جـ ٣ . صـ . ١٣٠ .

وهكذا كل مقام ، وحال ليس يقصدون فى التعبير عنه الحد الذاتى ، وإنما يذكرونه بنتائجه ، وما يكون عنه ، ممالا يكون إلا فيمن ذلك المقام والحال نعته وصفته " (١) .

فأسباب اختلافهم فى الوقت كما يذكر ابن عربى تعود إلى أمور :

١- أنهم لا يريدون تعريف الوقت تعريفا بالحد التعريف الجامع المانع.

٢- أنهم يتناولون معنى الوقت بإعتبار ثماره ونتائجه .

٣- أن هذه الثمار تختلف من شخص إلى آخر حسب اختلاف الأذواق ، واختلاف الأحوال ، والمقامات .

فلم يكن اختلاف التعبير عن الوقت اختلافاً حقيقيا ، وإنما كان نتيجة اختلاف الأحوال التى يمر بها الصوفية ، فكل يعبر عن حاله وذوقه ، وفى النهاية : الوقت يستوعب كل ما قالوا فى أغلب ما تعارفوا عليه من مصطلحات ومفاهيم ، حتى تعريف التصوف نفسه وجدناهم يعبرون عنه بعبارات مختلفة ، كل حسب ذوقه وحاله .

---

(١) الفتوحات المكية جـ ٢ صـ ٥٣٩ .

خاتمة فى نتائج البحث

هكذا تدرج بنا الحديث عن (الوقت عند الصوفية) - وعلى طريقة الصوفية أنفسهم فى التدرج - من الحديث عن الوقت فى اللغة إلى الحديث عن الوقت عند الصوفية ، متدرجين فى نظرتهم إلى الوقت من كونه ظرفا لأعمالهم ، وأحوالهم ، وارداتهم ، إلى كونه منزلا من منازلهم ، ومقاما من مقاماتهم .

وكان من بين ما توصل إليه البحث النتائج التالية :-

١- أن الصوفية حينما لحظوا الجانب الزمانى للوقت قصروه على الوقت الحاضر فقط ، دون الماضى والمستقبل ، وهذا التخصيص يعد نقطة انطلاق ترتب عليها ما بعدها من نظرات للوقت .

٢- أن الوقت كما هو ملازم للصوفى باعتباره فردا من بداية طريقه إلى نهايته فهو ملازم كذلك لتاريخ الصوفية منذ نشأتهم ؛ فقد ارتبط مصطلح الوقت منذ نشأته بمصطلح التصوف نفسه .

٣- وهذه النتيجة التاريخية لها قيمتها من الناحية الموضوعية ، وتتمثل هذه القيمة فى إحساس الصوفية منذ النشأة الأولى للتصوف ، وعلى امتداد تاريخهم بقيمة الوقت ، حتى جعلوه معبرا عن مقاماتهم .

٤- أن مراعاة آداب الوقت عند الصوفية آية على الصدق مع الله تعالى ، وآية على العلم به - تعالى - ، كما أن تضييع الوقت دليل عندهم على الجهل به - تعالى - ، وعدم الصدق معه .

٥- أنهم وقفوا على العلاقة بين العمل والرضا بالقدر ، أو بين السلوك والصحة النفسية التى لا تتحقق إلا فى ظل الرضا بالقدر ،

وصهروا ذلك كله فى بوتقة الوقت ، فكان نتيجة ذلك العمل من غير ضجر ، والسعادة من غير كدر .

٦- أن الكلمة إذا اصطلح عليها فى التصوف اكتسبت خصوبة قد لا نجد لها نظيرًا فى العلوم الأخرى ، ولفظ الوقت شاهد على ذلك ، وتعريفاته المختلفة ، والتنقل بين صاحب الوقت من أول المنازل الصوفية إلى آخرها وأرفعها لا يقدم لنا مفاهيم متناقضة للحقيقة الواحدة ، وإنما يظهر لنا الجوانب المختلفة للحقيقة الواحدة .

مــراجع البحــث

١- الإسلام والتصوف ، للشيخ مصطفى عبد الرازق ، ماسينيون - ط دار الشعب . القاهرة .

٢- اصطلاحات الصوفية ، لعبد الرزاق القاشانى ، تحقيق د. محمد كمال جعفر ، ط . الهيئة العامة للكتاب . القاهرة .

٣- إيقاظ الهمم فى شرح الحكم لابن عجيبة ، ط . دار المعارف بمصر .

٤- التعريفات للشريف الجرجانى ، ط . مصطفى البابى الحلبى بمصر .

٥- التمكين فى شرح منازل السائرين ، لأبى الفيض المنوفى ، مكتبة نهضة مصر .

٦- الحكم لابن عطاء الله السكندرى مع شرحها للشيخ عبد الله الشرقاوى ، مكتبة صبيح ، القاهرة .

٧- الرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيرى ، ط . صبيح ، القاهرة .

٨- شرح ابن عباد على الحكم ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة .

٩- طبقات الصوفية لعبد الرحمن السلمى ، تحقيق نور الدين شريبة ، ط . دار الكتاب العربى . القاهرة .

١٠- عوارف المعارف للسهروردى ، هامش الإحياء للغزالى ، ط . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

١١- الفتوحات المكية ، لابن عربى ، دار صادر ، بيروت .

١٢- كشف المحجوب للهجويرى ، ترجمة محمود أبو العزايم ، ط . دار التراث العربى القاهرة .

١٣- لسان العرب ، لابن منظور ، دار المعارف بمصر .

١٤- مدارج السالكين ، لابن القيم ، تحقيق محمد حامد الفقى ، دار الكتاب العربى .

١٥- المغرب فى ترتيب المعرب ، للمطرزى ، ط . بيروت .
١٦- المفردات فى غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى ، تحقيق ، د. محمد أحمد خلف الله مكتبة الأنجلو المصرية .
١٧- الوقت فى حياة المسلم ، د. يوسف القرضاوى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

فهــرس المــوضــوعات

الموضـــــوع	رقم الصفحة